محاضرة الدراسات العليا الدكتوراه لغة

الموضوع (تيسير النحو)

أ.د. ليث قهير عبد الله

تابع لموضوع تجديد النحو للدكتور شوقي ضيف

دفاع شوقي ضيف عن كتابه تيسير النحو

يدافع الدكتور شوقي ضيف في كتابه «تيسير النحو التعليمي قديماً و حديثاً مع نهج تجديده» عن جل آرائه في كتابه السابق «تجديد النحو» و لهذا قد فتح فصلاً خاصّا فيه للدفاع عن آرائه السابقة في كتاب «تجديد النحو» .

و يكشف عن وثائق جديدة في هذا الفصل بالتحديد إذ يقول مثلاً عن رأيه في جعل اسم كان و اخواتها فاعلا و جعل خبرها حالاً و يقول انّ هذا الرأي لسيبويه و غيره من كالمبرد الذي اتخذ خبرها في براية الأمر مفعولاً مجازاً، لكنّه تراجع عن رأيه في كتابه «المقتضب» و يسمي مرفوع كان اسماً لها و يسمي منصوبها خبراً لها و غير ذلك من هذه الأمور التي يحاول شوقي ضيف أن يكشف عن تاريخها و بذلك يجد مخرجاً لنفسه مما وقوع فيه في كتابه «تجديد النحو».

انّ كتاب «تيسير النحو التعليمي قديماً و حديثاً مع نهج تجديده» هو في الحقيقة أهم ما خلّف شوقي ضيف في مجال نقد النحو و قد حاول أن يقص فيه قصة تجديد النحو با كملها من الزمن القديم حتي الزمن الحاضر. فكتب عن «الرد علي‌النحاة» لابن مضاء القرطبي و كتب عن «إحياء النحو» للأستاذ مصطفى إبراهيم و كتب عن كافّة المقترحات و الردود عليها في مجمع اللغة العربية فيما يختصُّ بهذه القضية.

إن هذا الكتاب هو ملخص جهود شوقي ضيف في هذا المجال و يجمع أيضا في طياته الكثير من قرارات مجمع‌اللغة العربية بالقاهرة و العراق. كما انّ المؤلف يظهر فيه كمعلم حنون إذ يكثر فيه من همه علي تعليم الناشئة و تخفيف الكثير من الوطءِ عليهم.

ان اهم ميزه هذا الكتاب هي اشتماله علي مناقشة أصعب الأبواب النحوية و تاريخ تدوينها و مشكلاتها بصورة دقيقة وعلمية. و قد تمثل في ذاتها التجاء

المؤلف مرة أخرى إلى آراء ابن القرطبي ما عدا نظرية العامل الذي بقي ملتزماً بها وهي التي سببّت له هذه المشاكل.

و هناك محاولة جديدة تظهر عند شوقي ضيف في هذا الكتاب و هي أنه يحاول أن يضع تعريفات و ضوابط دقيقة للكثير من ابواب النحو إذ انه يري انّ الكثير من الضوابط و التعريفات في النحو ليست دقيقة تماماً و تحتاج إلى تعديل. لكننا نراه لا يتجاوز في هذا الأمر التعريفات و الضوابط التي جاءت في كتب ابن هشام الأندلسي إذ يورد بعض الإشكاليات عليها. و يكشف ايضاً في هذا الكتاب عن سر تراجعه عن إلغاء نظرية العامل عندما يتكلّم عن إبراهيم مصطفي و يقول بانّ أسلوبه لم يعد فيه مفعول به و مفعول له و مفعول مطلق و استثناء و حال و غيرها من أبواب النحو، و هذا الإلغاء يضيع علي الناشئة معرفة وظائف هذه الكلمات في الصياغة العربية ممّا قد يحدث بلبلة في تصورّها لأساليبها و هذا يفسّر لنا ضمنياً مراجعة شوقي ضيف لأفكاره و تنازله عن إلغاء نظرية العامل.

لكن الأمر ليس بهذه البساطة و لعل هذا يعدُّ نقداً غير سليم لكتاب «إحياء النحو» لإبراهيم مصطف لانّ أولاً صدور هذا الكتاب واجه ترحيبا عظيماً من الداعين إلى التجديد في النحو و منها تمجيد الدكتور طه حسين الذي كتب مقدمة له و ثانياً تفسيره الممتع من النحو العربي بصورة جديدة و سهلة جداً. فقد واصل المؤلف فيه ميسرة ابن مضاء القرطبي في إلغاء نظرية العامل و تطويرها و عرضها فكر جديد. فقد أكد أن النحو العربي يشبه في نظامه، المنطقَ الارسطالسي في حين أنّ العرب قبل الإسلام لم يكونوا يفكرون في تكلّمهم علي هذه الأصول المنطقية و يعرض فهمه الجديد من النحو العربي و يلقي نظريته الشهيرة التي تفسّر النحو العربي بأجمعه في أربعة أصول و عدة فروع و هي سهلة جداً و منطقية في بنائها الفكرّي و سنتكلم عنها باختصار في هذه المقالة.

نقد مرحلة التأليف:

على الرغم من اراء شوقي ما فيه من ملامح التجديد في بعض فصوله الا انه إيغالا في القديم فقد نري فيه المؤلف يعتمد علي آراء القدماء بل يتحقق من أصولها و بداياتها و يحاول أن ينتقص من بعض محاولات بعض المجددين مثل إبراهيم مصطفي الذي يشهد له الكثير بالنجاح الباهر و لقد كتب صديقه الحميم طه حسين مقدمة لكتابه«إحياء النحو» الذي يتضمن آراؤه التجديدية تتميز بالإطراء و الثناء تدل علي مدي إعجابه بهذا الكتاب. لكن شوقي ضيف التلميذ بدل أن يحاول أن يتم انجازات إبراهيم مصطفى المجدد ، ينتقضها و يطردها رغم إعجابه بها الذي نفهمه من خلال كلماته في نقد هذا الكتاب إذ لم يورد شوقي ضيف علي آرائه إلّا إشكالية واحدة و هي احتمال إضاعة وظائف الكلمات في الجملة علي الطالب.لكن صراع القديم و الجديد يظهر مرة أخرى هنا و لم يستطع ضيف ان يخلص نفسه منه فيبدو فيه متخبطا لا يجيد التعامل معهما إذ يخشي التجديد و يتجنبه لما فيه من احتمال اضاعة وظائف الكلمات علي الطالب في الجملة و و يظهر مالّا من اصر قواعد القديم و ثقلها لكنه يريد ان يتصدي لها من حيث تنتصر هي أبد الدهر و هي الالتزام بما تفرضه هي يعني نظرية العامل.

و المدقق في لغة كتابه الدكتور شوقي ضيف يجدها لغة عتب و لغة من يحاول أن يدافع عن رأيه و ذلك حين يقص ما جري له من حوار من مجمعاللغة العربية إذ يصرُّ هو علي بعض الجوانب و يرفض المجمع تلك الآراء بحججه. و نعود هنا مرة اخري لنقول ان مشكلة شوقي ضيف هي انه يريد ان يحارب النحو البصري، إن صح القول، لتجديده، بالفكر و العقل البصري وهذا لايمكن ابداً لأنهم فرضوا تفكيرهم علي نحو بحيث اصبح صرحا كما عبّر عنه شوقي ضيف نفسه.

مقارنة نقد النحو عند شوقي ضيف و ابراهيم مصطفى

ان كلا من شوقي ضيف و إبراهيم مصطفى اخذ بذرة أفكارهم في تجديد النحو من نظريات ابن مضاء القرطبي، و لكن هناك فرق كبير بين طريقة شوقي ضيف و بين طريقة إبراهيم مصطفى في كيفية استمرارهم في معاملتهم لنظريات ابن مضاء القرطبي. فقد رأي شوقي ضيف أنّه ليس بوسع العرب أن يحاربوا ماضيهم و نحوهم القديم من الأساس لأنها تجربة سكون لها عواقب مأساوية علي الأدب العربي إن فشلت. كما أنها تواجه دائماً بالرد من قبل العلماء والناس في أغلب الأحيان و هذا ما يجعل الخوض فيها صعباً.

و قد يمس الغاء نظرية العامل وظائف الكثير من ابواب النحو و يجعل بذلك الكثيرين لا يميزون بين الأساليب الدقيقة للغة العربية.

اما الاستإذ ابراهيم مصطفى فكان جرأة من الدكتور شوقي ضيف إذ اتخذ نظرية ابن القرطبي في الغاء نظرية العامل اساساً لعمله و آمن ببطلان نظرية العامل النحوي و حاول أن يصيغ نظرية اشمل و اكمل لتوضيح اساس النحو العربي قبل تدوينه علي أسسٍ منطقية فيما نري شوقي ضيف يتراجع عن الغاء نظرية العامل و يحاول أن يجد غايته في كتب الكوفيين النحوية و بعض البصريين القدامي.

إنّ نظرية الاستإذ ابراهيم مصطفى في النحو العربي قبل تدوينه تتلخّص في اصلها علي ثلاثة اسس وعدة فروع و الأسس هي:

ـ ان الضمة عند عرب الجاهلية كانت علامة الاستاد فكانوا يضعونها علي آخر كل كلمة يتحدثون عنها أو يسندون إلىها خبراً

ـ وكانوا يجعلون الكسرة علماً للاضافة أو للجر بحروف الجر. و انما صارت الكسرة في نظرهم علامة الاضافة لما فيها من شبه بياء النسبة.

ـ والفتحه ليست حركة اعراب و كانوا يضعونها علي آخر كل كلمة غير مجرورة أو مرفوعة لأنها الحركة الخفيفة المستحبّة عندهم و هي في الواقع اخفّ من السكون الذي يستخدمونه العرب إلىوم في أواخر الكلمات في لغتهم الدارجة و يشهد الوقف بالنقل و الروم و الاقواء و الاصراف بانّ الفتحة ليست حركة اعراب عندهم

و هذا تفسير جديد لنظام النحو العربي المستعصي و العويص. يحب علي المجددين ان يستمرّوا في اصلاح و تطوير هذه النظرية و إزالة عيوبها بدل أن يرفضوها بأكملها كما فعل شوقي ضيف.